

الكشاف

لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم " الأنبياء : 98 ، امتنعوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال عبد الله بن الزبيري : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أأنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما . وعزير يعبد . والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فأ نزل الله تعالى : " إن الذين سبقوا لهم منا الحسنی " ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد الله بن الزبيري عيسى ابن مريم مثلا وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه " إذا قومك " قريش من هذا المثل " يصدون " ترتفع لهم جلبية وضجيج فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ في بجدله كما يرتفع لغط القوم ولجبههم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ يصدون بالضم فمن الصدود أي : من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل : من الصديد وهو الجلبية وأنها لغتان نحو : يعكف ويعكف ونظائر لهما " وقالوا آلهتنا خير أم هو " يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا " ما ضربوه " أي ما ضربوا هذا المثل " لك إلا جدلا " إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل " بل هم قوم خصمون " لد شداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى : " قوما لدا " مريم : 97 ، وذلك أن قوله تعالى : " إنكم وما تعبدون من دون الله " الأنبياء : 98 ، ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام : " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة إلا أن ابن الزبيري بخبه وخداعه وخبث دخلته لما رأى كلام الله ﷺ ورسوله محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغا فصرف معناه إلى الشمول والإحاط بكل معبود غير الله ﷺ على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقع في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه : " إن الذين سبقوا لهم منا الحسنی " الأنبياء : 101 ، فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام على أن ظاهر قوله : " وما تعبدون " لغير العقلاء . وقيل : لما سمعوا قوله تعالى : " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم " آل عمران : 59 ، قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آداميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت . وقوله : " آلهتنا خير أم هو " على هذا القول : تفضيل لآلهتهم على عيسى لأن المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلا . معناه : وما قالوا هذا القول يعني : آلهتنا خير أم هو . إلا للجدال وقرئ : آلهتنا خير بإثبات

همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها . وفي حرف ابن مسعود : خير أم هذا . ويجوز أن يكون جدلا حالا أي : جدلين . وقيل : لما نزلت " إن مثل عيسى عند الله " آل عمران : 59 ، قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبد وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا كما عبت النصارى المسيح وهو بشر . ومعنى " يصدون " يضجون ويضجرون . والضمير في " أم هو " لمحمد A وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم : السخرية به والاستهزاء . ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم : الملائكة بنات الله وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولما فعلنا نكرا من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشف منهم قولا وفعلا فإننا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقليل لهم : مذهب النصارى شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل وما عيسى " إلا عبد " كسائر العبيد " أنعمنا عليه " حيث جعلناه آية : بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل .

" ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون "